المقتطف

الجزء التاسع من السنة العاشرة

حزيران (يونيو) ١٨٨٦ = الموافق ٢٨ شعبان ١٣٠٣

شذور الابريز في نوابغ العرب والانكليز

ابن خلدون المغربي وهربرت سبنسر الانكليزي

ابن خلدون * هو ابو زيد عبد الرحمن ابن خلدون الاشبيلي المغربي. ينتهي نسبهُ الى وائل ابن حجر من اقيال عرب اليمن. دخل جدهُ خلدون الاندلس ونزل بقرمونة ونشأ بيت بنيهِ بها وانتقل الى اشبيلية بالاندلس واواخر القرن الثالث للهجرة ثم انتقل الى تونس في اواسط القرن السابع وبها ولد ابن خلدون في غرة رمضان سنة ٨٣٢ للهجرة الموافقة سنة ١٣٣٢ للبلاد. وربي في حجر والدهِ وتخرّج في اللغة والفقه على كثير من المشايخ ودرس الشعر وتضلّع في فنون الادب والتاريخ. وخدم سلاطين الاندلس وتونس ومراكش فقرّبوهُ واستخدموهُ في كتابة سرهم. فلما قصد ابا عبد الله المخلوع سلطان الاندلس اتاهُ كتاب من ابن الخطيب وزير السلطان يتأهل بهِ بقولهِ

حللتَ حلولَ الغيثِ في البلدِ المحلِ ... على الطائرِ الميمونِ والرحبِ والسهلِ

يمنًا بمن تعنو الوجوهُ لوجههِ ... من الشيخِ والطفلِ المعصّبِ والكهلِ

لقد نشأت عندي للقبالكَ غبطةٌ ... تسرّ اغتباطي بالشبيبةِ والاهلِ

ووديّ لا يحتاجُ فيهِ لشاهدٍ ... وتقريري المعلومَ ضربٌ من الجهلِ

ثم دخل البلد ولهُ من العمر اثنتان وثلاثون سنة فقط فاعتزّ السلطان لقدومهِ وهيأ لهُ منزلاً في احد قصورهِ مع كل لوازمهِ واركب خاصتهُ للقائهِ

وسار في السنة التالية الى ملك قشتالة لاتمام عقد الصلح بينه وبين ملوك العدوة فلقيه باشبيلية وعامله بالكرامة الفائقة وطلب للاقامة عنده وان يردّ عليه تراث سلفه باشبيلية فامتنع وأراد السفر فزوّده وحمله على بغلة فارهة بمركب ثقيل . ثم كتب اليه السلطان ابو عبد الله صاحب بجاية بالحضور اليه فسار الى بجاية واحتفل به السلطان وتهافت عليه اهل البلد يقبلون يديه كل ذلك وهو في الرابعة والثلاثين من عمره . ثم ان السلطان قلدّه اعمال دولته فاستفرغ جهده في سياسة اموره وتدبير سلطانه . وما زال يتقلب في خدمة السلاطين الى ان ملّ كثرة الاشغال وسئمت نفسه مما يلاقيه من الحسّاد والوشاة فاخلى الى بعض قبائل البادية واقام عندهم اربع سنين الّف في غضونها مقدمته المشهورة الآتي ذكرها . ثم اشتاقت نفسه الى مطالعة الكتب والدواوين وارادتنقيح ما كتبه في البادية وتصحيحه فجاء تونس وقد تاهز الثامنة والاربعين فاستدناه السلطان من مجلسه واختصه في اسراره . فغصّ بطانته من ذلك واخذوا في السعاية فيه وكان السلطان معرضًا عنهم وكلّه بالاكباب على اتمام تاريخه النفيس لشوقه الى معرفة الاخبار فاكمل منه اخبار البربر وزناتة وكتب من اخبار الدولتين العباسية والاموية وما قبل الاسلام ما تيسّر له

ثمّ جاء الديار المصرية واقام في مدينة القاهرة وجلس للتدريس في الجامع الازهر واتصل بسلطان مصر برقوق فاكرمه واحسن مثواه وولاّه قضاء المالكية فقام بهذه الوظيفة احسن قيام وعدل في القضاء ولم يحاب بالوجوه وانصف المظلوم من الظالم وسوّى بين الناس كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم واقام حدودًا لاهل النيا لا يتجاوزونها ونظر في معارف اصحاب الرتب واهليتهم وتشدد في انفاذ الاحكام فكثر الشغب عليه واظلم الجو بينه وبين اهل الدولة . ووافق ذلك مصاب دهاه باهله وولده وذلك انهم قدموا حينئذٍ من المغرب فاصاب سفينهم ريح عاصف فغرقوا كلهم . فعظم عليه الامر وعزم على ترك منصبه ولما ظهر ذلك للسلطان خلى سبيله فاكبّ على التدريس والتصنيف ومراسلة اهل العلم وختم تاريخه المشهور سنة ٧٦٧ للهجرة

ثم سار الى الشام في خدمة الملك الناصر خلال فتنة تيمورلنك فأسر وعرف تيمورلنك فضله فاكرمه على جاري عادته من اكرام العلماء ثم اعاده الى الديار المصرية فتوفي بها سنة ٨٠٨ للهجرة الموافقة سنة ١٤٠٥ للميلاد وله من العمر اربع وسبعون سنة

قال لسان الدين ابن الخطيب وكان ابن خلدون حسن الخلق جم الفضائل رفيع القدر وقور المجلس عالي الهمة عزوفًا عن الضيم صعب القيادة طامحًا للفنن الرئاسة كثير الحفظ حسن العشرة يبذول المشاركة . اه . وله مؤلفات كثيرة اشهرها تاريخه الموسوم بكتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر . واشهر اجزائه المقدمة

والكتاب الاول و يطلق عليها معًا اسم مقدمة ابن خلدون . وموضوع المقدمة علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والمامع بمغالطة المؤرخين. وموضوع الكتاب الاول الداخل تحت اسم مقدمة ابن خلدون العمران وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب . وقد اشرنا الى هذه المقدمة مرارًا عديدة في المنتطف واقتبسنا منها فقرات كثيرة غير مرة . وسنورد بعض المبادئ التي مهد لها فيها والمذاهب التي ذهب اليها ونقابلها بما يناسبها من مبادىء الفيلسوف هربرت سبنسر بعد ذكر طرف من ترجمته المجازًا لوعدنا السابق

هربرت سبنسر الانكليزي * ولد هذا الفيلسوف في مدينة دربي ببلاد الانكليز سنة ١٨١٠ من بيت مشهور بالعلم والفضل . وربي في حجر والده ونشأ عليه في العلوم الرياضية واتقن فن المساحة وصار مساحًا وهو في السابعة عشرة. ولما كان له الثمان وعشرون سنة من العمر ظهرت منه افكار الفيلسوف السياسي والعالم الاقتصادي في رسائل موضوعها "مدار الحكومة". ثم ترك المساحة واكبّ على الدرس والتصنيف في المواضيع المدنية والاقتصادية واليولوجية والعقلية والادبية وجعلت المصنفات الجليلة تتوارد من قلمه تباعًا فمنها كتابه في المبادىء الاولى في مجلد واحد . ومبادئ البولوجيا (علم الحياة والاحياء) في مجلدين . ومبادئ السيكولوجيا (العلسفة العقلية) في مجلدين ايضًا. ومبادئ السوسيولوجيا (علم العمران) في مجلد. ومبادئ الآداب في مجلد. والاحصاءات الاجتماعية في مجلد. والسوسيولوجيا الوصفية في ثمانية مجلدات. والسنن السياسية في مجلد. وعلم السيولوجيا في مجلد . عدا عن رسائل كثيرة طبعت في الجرائد العلمية ثم جمعت في ثلاثة مجلدات . والموضوع الاهم في هذه الكتب كلها تعميم مذهب الارتقاء على كل ما في هذا الكون ماديًا كان او غير ماديّ وهذا هو مذهبه الفلسفي

والجمهور الآن على ان نسبة سبنسر الى علم الاخلاق والآداب والسياسة نسبة لَيل الى علم الجيولوجيا ونسبة داروين الى علم البيولوجيا لان كلًّا من هولاء العلماء الثلاثة قد ذهب مذهبًا جديدًا وجمع ما لا يحصى من الادلة الاستقرائية لتأييد مذهبه فنهض العلماء عليه وزيفوا مذهبه وكفّروه . ولكن الزمان ابو العجب فانه يغير الآراء ويجلو صدأ العقول . فمذهب ليل قد طاط له كل العلماء رؤوسهم واقروه بين الحقائق العلمية . ومذهب داروين قبله الآن جمهورهم. ومذهب سبنسر قبلة فريق كبير منهم . وقد شهد العلامة هكسلي اللاهوتي رئيس مدرسة برنستن الكلية وهو من اكبر اضداد سبنسر واقواهم حجة ان كيانو (اي كليات سبنسر) مفيدة دائمًا وربما ثبت بعضها فيما بعد وصار من اثبت نواميس الكون المعروف

ويظهر فضل سبنسر ومنزلته بين رجال العلم من الحادثتين التاليتين

الحادثة الاولى انهُ تناظر في اواخر سنة ١٨٨٤ مع العلامة هربسن زعيم حرب كونت في جريدة القرن التاسع عشر وكان لمناظرتهما وقع عظيم عند رجال العلم وخدمة الدين في اوروبا واميركا . فجمعت مطبعة البلتن الاميركية هذه المناظرة وطبعتها في كتاب واحد بعد ان استشارت سبنسر في امر طبعها فلم ينكرهُ عليها (وهي التي تطبع كتبهُ في اميركا) فكتب هربسن الى سبنسر ينكر ما فعل ويعد عمله هذا سرقةً ويتهمهُ بالاشتراك فيهِ فاجابهُ سبنسر يتنصل من الاشتراك في هذا العمل وارسل اليهِ صورة الخطاب الذي أرسل اليهِ من اميركا وصورة الجواب الذي اجاب بهِ . ثم اشار على هربسن ان يطبع المناظرة في انكلترا وينفرد بربحها وانهُ لا يعارضهُ في ذلك مع ان حقوق الطبع محفوظة للاثنين . فلم يقبل هربسن بذلك بل اجابهُ انهُ قبل تنصلهُ ولكنهُ لم يزل منكرًا فعلهُ . فارسل سبنسر تلغرافًا في الحال الى اصحاب المطبعة في اميركا يطلب منهم ان يوقفوا بيع الكتاب ويلاشوا كل ما عندهم من النسخ والصفائح ويقبلوا كل هذه الخسارة عليهِ حسمًا لكل نزاع وكتب الى جريدة التيمس يعترف بخطاهُ في تسليمهِ لاصحاب مطبعة البلتن بطبع هذا الكتاب

وجميع المراسلات التي دارت بين سبنسر وهربسن كانت ترسل نسخها الى جريدة التيمس الانكليزية فتنشر فيها حالاً وترسل فقرات منها بالتلغراف الى جرائد اميركا فتنشر فيها حال نشرها في جريدة التيمس . كأنَّ اقوال هذين العالمين الدرّ والجوهر فيجب التقاطها حالاً واشهارها في اشهر جرائد الدنيا حتى يطَّلع عليها القاصي والداني

الحادثة الثانية . ان هربرت سبنسر زار الولايات المتحدة الاميركية في اواخر سنة ١٨٨٣ ترويحًا لنفسهِ من مشقة التصنيف فهرع اليهِ كتَّاب الجرائد من كل فج لكي يلتقطوا كل كلمة ينوه بها وكان المرض والضعف قد انهكا قواهُ فاحتجب عنهم ما امكنهُ الاحتجاب ثم ظهر فسألوهُ مسائل كثيرة وكتبوا كل كلمة اجابهم بها ونشروها في جرائدهم . وعندما اراد الرجوع الى بلادهِ اجتمع اوداعهِ مئتان من اكبر علمائهم واراوا لهُ وليمة فاخرة فخاطبهم خطابًا نفيسًا اتخذوهُ ثم صورة هيكلة بلادهم الاجتماعية . فكيف لا وهو رأي فيلسوف من اكبر فلاسفة العصر . فنول ذلك لا متابعة لرأيهِ الفلسفي بل اظهارًا لمالهُ في عيون القوم من المحبَّة والاكرام

ولم يزل سبنسر في قيد الحياة مشتغلاً في اسمى المواضيع العلمية والفلسفية

المقابلة بينهما * ليس المراد ان نقابل بين الرجلين في اخلاقهما واطوارهما بل ان نقابل بين مذاهبهما العلمية في بعض المواضيع التي كتبا فيها سوية . وهذا لا يشمل كل مصنفات ابن خلدون ولا كل مصنفات هربرت سبنسر ولا سيما الان مصنفات الثاني عديدة شاملة لكل معارف البشر .

ولذلك نكتفي بذكر بعض المبادىء التي اثبتها ابن خلدون في مقدمته ونقابلها بما يماثلها مما اثبته هربرت سبنسر في بعض مؤلفاته

المبدأ الاول * وجوب تمحيص الاخبار قبل اثباتها في كتب التاريخ

قال ابن خلدون ان فن التاريخ محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت ينفضيان بصاحبهما الى الحق ويكبان به عن المزلات والمغالط . لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق . وكثيرًا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وائمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًا وسمينًا ولم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط . وتقدم شواهد كثيرة على ذلك وفي جملتها قصة معاقرة الخليفة هرون الرشيد للخمرة التي افضت الى نكبة البرامكة واثبت فسادها بالمأثور من حال الرشيد وتدينه وما كان عليه من صحبة العلماء والاخبار . وذكر قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين احضرله الملك على مائدته وهي حجة قاطعة على ان الرشيد كان يجتنب الخمر وان ذلك كان معروفًا عند بطانته واهل مائدته . ثم بيّن اسباب تطرّق الكذب الى الاخبار فقال ان منها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تبين صدقه من كذبه واذا خامرها تشيع لرأي او نحلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة وكان ذلك المیل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله . ومن الاسباب المقتضية لذلك ايضًا الثقة في الناقلين والذهول عن المقاصد والجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع

وهذا المبدأ غاية في الاصابة ولكن ابن خلدون لم يراعه دائمًا ولا اصاب في تطبيقه كل الاصابة لان الاخبار التي اثبتها لا يخلو بعضها من مظنة الشك والتي جعلها في مظنة الشك بل قطع بفسادها هي غير فاسدة كما وهم والادلة التي اقامها على فسادها واهنة وبعضها منقوض . وسبحان من تنزّه بالكمال

ومهما يكن من عدم اصابته في التطبيق فالمبدأ صحيح ثابت ويجب اتباعه دائمًا وقد ذكره هربرت سبنسر في مواضع كثيرة من كتبه وبيّن اسبابه . قال في الفصل الاول من كتابه في علم السوسيولوجيا (اي علم العمران) في عرض الكلام على الشواهد التي يستشهد بها رجال السياسة من التواريخ والجرائد

والرحلات انما تصح نظام يريدون وضعه او سنة يقصدون سنها انهم يقلبون الاخبار على عواهنها غير ملتفتين الى اغراض القائلين بها واهوائهم او ان اغراضهم الشخصية الوطنية والسياسية والدينية وامالهم الطبيعية واسلوب التهذيب الذي هذبوا به كل ذلك يتغلب عليهم ويحرفهم عن جادة الحق ومثل على ذلك بالسمكة التي في الماء فانها لا ترى في المكان الذي هي فيه بسبب انكسار النور وبزداد انحرافها عن موقعها الحقيقي بازدياد انحراف الناظر اليها. وقال في الفصل الخامس من هذا الكتاب ان من عوائق فن السيولوجيا فساد الاخبار التي يتناقلها الناس وان الاخبار المدخولة شائعة الآن كما كانت شائعة في الازمنة الغابرة. وذكر امثلة لذلك منها ان بعضهم وصف اهالي زيلندا الجديدة بانهم اهل نباهة وشجاعة ونجارة. وبعضهم وصفهم بانهم ضعفاء جبناء لطفاء والوصفان على طرفي نقيض وهما في شعب واحد. ثم قال انه انتشرت من برمة وجيزة في اسواق مدينة لندن صورة عصفور له رأسان وبدن واحد وقال ان واحداً رأى هذا العصفور واخبرني انه مثل صورته تماماً. ثم جاء وصفه في جريدة اللانست الطبية فاذا هو عصفوران كاملان لهما بدنان ورأسان ولا اتصال بينهما الا من ظهريهما فكأن محبة الاستغراب تقود الناس عن غير قصد منهم الى تقرير الامور على غير حقيقتها. واطال الكلام في هذا الموضوع واقرد له فصولاً كثيرة بين فيها تأثير التشيع المذهبي والسياسي والتعليمي. والظاهر انه هو ايضاً لم يسلم مانعي غيره عن الوقوع فيه فقد ذكر في مقدمة "السنن السياسية" ان بلاد المكسيك كان فيها مدن وسبعة فيها مئة وثمانون الف بيت. وهذا من المبالغة بمكان ولا سيما لانه يزيد كثيراً عما قرره كثيرون من المؤرخين فقد قال زوارز الذي زار المكسيك سنة ١٧٢٦ ان بها سبعين الف ساكن وهذا قول واحد من اتباع كورتز ايضاً. ولكن الذي يطالع كتب سبنسر ويرى ما فيها من الشواهد التي تعد بالالوف الكثيرة لا يعجب من وقوع الخطإ القليل فيها ولا سيما ان الشواهد يجمعها له المساعدون من كتب القوم وهو يتولى نسبتها وتجريد الكليات من جزئياتها

المبدأ الثاني * ان التعاون على المعاش والدفاع هو من اول اسباب الاجتماع الانساني ودعائمه

قال ابن خلدون في الفصل الاول من الكتاب الاول "ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء غير موفية له بمادة حياته فلا بدّ من اجتماع الكثير من ابناء جنسه ليحصل القوت له ولهم بالتعاون قدر الكفاية. وكذلك يحتاج كل واحد منهم في الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بابناء جنسه. واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة فاذاً هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني والا لم يكمل وجودهم". وقال في فصل آخر ان

اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلهم في المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وشيط قبل الحاجي والكمالي

وقال هربرت سبنسر في هذا المعنى ان التعاون لا يتم بغير الاجتماع والاجتماع لا يدوم الا بالتعاون والا انحلت عراه وتفرق الناس ايدي سبا . وقد يكون الغرض من التعاون تحصيل ما لا يمكن للفرد الواحد تحصيله من المعاش او ما يعسر عليه تحصيله اذا انفرد وحده او ما لا يستطيعه وحده من مدافعة الاعداء . والغالب ان يكون الغرض منه مجموع هذه الاغراض كلها . ثم افاض في شرح تقسيم الاعمال والتعاون عليها وعلى الاعداء وتأثير ذلك في الاجتماع الانساني وبين تدرج الناس فيه من اوطإ اطوار التوحش الى اسمى درجات التمدن وذكر امثلة لكل ذلك من بين اهل هذا العصر لان فيهم كل درجات البداوة والحضارة التي تقلب فيها البشر

المبدأ الثالث * ان العصبية دعامة أخرى من دعائم الاجتماع الانساني

قال ابن خلدون ان احياء البدو يزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة . وحالهم يذود عنهامن خارج حامية الحي من اتجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الا اذا كانوا عصبية واهل نسب واحد لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعرة كل واحد على نسبه وعصبيته اهم . واما المنفردون في انسابهم فقلّ ان تصيب احداً منهم نعرة على صاحبه . فاذا اظلم الجو بالشر يوم الحرب تنكل كل واحد منهم ينفي التهاذ لنفسه خيفة واستحياشاً من التخاذل . وقال في فصل آخر ان الملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبية لان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتذامر ثم ان الملك منصب شريف فيقع فيه التنافس غالباً وقلّ ان يسلمه احد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة وتنتهي الى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لا يقع الا بالعصبية . ثم بيّن بعد ذلك انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية كما هو مشاهد في كثير من البلدان

وقال هربرت سبنسر ان الاجتماع يقتضي ائتلاف الطبائع وهذا يستلزم وجود العصبية وهي تقوى بالوراثة وتمكن في الجنس كله . واستشهد على ذلك بشواهد كثيرة لا محل لاستيفائها هنا وقال ان ذلك كان معروفاً من قديم الزمان فان هيرودوتس ذكر الاسباب الرابطة للشعب اليوناني فقال انها اولاً الدم ثانياً اللغة ثالثاً المذهب رابعاً العوائد والاخلاق . ثم بيّن ان عدم العصبية هو الذي حل بعض الممالك القديمة وهو الذي آل الى نقوض اركان غيرها من الممالك التي لم تزل قائمة الى يومنا هذا . وتشاءم بانسلاخ سلطنة الهند عن الحكومة الانكليزية يوماً ما لانها غير مرتبطة بها بعرى العصبية

المبدأ الرابع * ان البداوة اقرب الى الخير من الحضارة

قال ابن خلدون وسبب ذلك ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شر . واهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلونت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه . واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من اسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل منهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضر اقل بكثير فهم اقرب الى الفطرة الاولى وابعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها

وقال هربرت سبنسر ان بين المتوحشين اناسًا تصح مقابلتهم بافاضل المتمدنين . وبعض الشعوب الشرقية القديمة التي لم تزل في حال البداوة لا تعرف فيهم خلة الكذب فهم اصدق من اصدق الاوربيين . وبعد ان ذكر شواهد كثيرة على ان البداوة قد تكون اقرب الى الخير من الحضارة قال ان اهالي دمارا الذين يقال انهم خالون من الشفقة لانهم ضحكوا عند ما رأوا واحدًا منهم قد افترسه حيوان متوحش ليسوا باقل شفقة من الرومانيين الذين كانوا يقيمون المشاهد العظيمة ليروا فيها هجوم الاسود على الاسرى ولا من كراكلا الذي قتل عشرين الفًا من اصدقاء اخيه ثم اجبر جنوده المجلس العالي على ان يضعه في مصاف الآلهة . وبعد ان اناض في هذا الموضوع قال ان الخير لا يتبع العمران دائمًا بل ان درجات العمران الاولى اقتضت القساوة والبطش لان اشد الناس قساوة وبطشًا هم الذين تغلبوا على غيرهم في اول الامر ووطّدوا دعائم الاجتماع الانساني . ثم استنتج ان كل الحروب القديمة وما اظهرهُ البشر من مظاهر القساوة والعنف كان ضروريًا لنمو نوع الانسان وتقويته وانه لولا ذلك لكان سكان الارض يأوون الآن الكهوف والغياض كاضعف المخلوقات . ولله در القائل

حبُّ السلامة يثني همَّ صاحبهِ عن المعالي ويغري المرء بالكسلِ
فان جنحتَ اليهِ فاتخذْ نفقًا في الارضِ او سلمًا في الجوِّ واعتزلِ

وقد اتفق رأي ابن خلدون وهربرت سبنسر على ان البداوة اقرب الى الخير من الحضارة ولو كان مراد ابن خلدون من شرور الحضارة غير مراد هربرت سبنسر كما رأيت

المبدأ الخامس * ان آفة الملك الترف

قال ابن خلدون ان الدولة تكون في اولها بدوية فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم

الترف وعوائده ويكون خرجها واتلافها قليلاً فيكون في الجباية حينئذٍ وفاء بازيد منها . ثم لا تلبث ان تأخذ بدين الحضارة في الترف فيكثر اذ ذاك خرج اهلها ويكثر خرج السلطان كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثارة عطائه فتحتاج الدولة الى الزيادة في الجباية فيحدث صاحب الدولة انواعًا من الجباية يضربها على البياعات . وربما يزيد ذلك في اواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الاسواق بفساد الاموال ولا يزال ذلك يتزايد الى ان تضمحل الدولة . وقال في مكان آخر ان العدوان على الناس في اموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذٍ من ان غايتها ومصيرها انتهابها من ايديهم . واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت ايديهم عن السعي في ذلك . وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فاذا كان الاعتداء كثيرًا عامًّا في جميع ابواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك اذهابه بالآمال جملةً فكسدت اسواق العمران وانتقضت الاحوال واذعر الناس في الآفاق في طلب الرزق فخفّ ساكن القفار وخلت ديارهُ وخربت امصارهُ واختلّ باختلاله حال الدولة والسلطان لما انها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة . واستأنف الكلام في هذا الموضوع مرارًا كثيرة وبيّن فيه ان ترف الدولة يكثر مظالمها ويفسد حال رعيتها ويسرع باضمحلالها وقدّم على ذلك شواهد كثيرة من الممالك التي خربت في ايامه او قبلها

وقال هربرت سبنسر ان التعاون يفضي الى وجود النظام السياسي ولهذا النظام منافع ومضار وقد تزيد مضارهُ على منافعه لانهُ يوجب الجباية على الرعية للقيام بنفقات الملك وبطانته وحاميته وقد يزيد جور الحكام وترفهم فيزيدون الجباية زيادة فاحشة حتى تربو مضارهم على منافعهم . ومثّل على ذلك ببلاد مصر في ايام الرومانيين فان دولة رومية وضعت عليها حينئذٍ اثقل الجبايات وانتزعت خيراتها منها فكانت تقوم بنفقة ولاتها وحاميتها وبنفقات الجنود الرومانية حيث حلّت . وكانت الاموال التي ينتزع بها الشعب المصري لاعانة الدولة الرومانية لا تلبث طويلاً حتى تصير ضرائب تؤخذ منهم جبرًا حتى هلك الفلاّح والاكّار وصارت الاراضي الخصبة قفارًا قاحلة وعلا صوت السياط الى السماء وملأ صراخ الناس الفضاء فانواع هم ومواشيهم من شدة الفقر والعناء وأجبر الاحياء على دفع الضرائب التي كان يدفعها الاموات والسعيد من ساعدته التقادير على الفرار من بلاده الى بلاد الاعداء . واستشهد ايضًا بمملكة فرنسا التي لم يلبث ملكها ان اخضع الامراء والغى مظالمهم الكثيرة حتى ركب مراكب البذخ والترف وضرب على الرعايا ضرائب ثقيلة فتزايدت الجباية من احد عشر مليونًا الى ثلثمئة واحد عشر مليونًا فعمّت المجاعة ومات الناس جوعًا او هجروا اوطانهم وهاموا على وجوههم وما زالت الخطوب تتفاقم حتى

انجلت عن الثورة الفرنسوية بكل اهوالها

وهنا نمسك عنان القلم عن التفصيل في المقابلة بين هذين المؤلفين العظيمين والفيلسوفين الكبيرين وننظر نظرًا عامًا الى ما يتراءى لنا من اوجه المطابقة بينهما فنقول ان اكثر المواضيع التي طرقها ابن خلدون طرقها هربرت سبنسر ايضًا حتى المواضيع العلمية واللغوية والطبيعية والرياضية . وكلٌ منهما اعتمد على ما يُعرَف في عصره من مبادئ العلوم والفنون وحاول ان يتتبع فيها تاريخ العمران . ولكن معارف البشر قد نمت في هذا العصر وزادت زيادة بالغة عنها في عصر ابن خلدون ولذلك ترى الموضوع الذي كتب فيه هذا صفحة او صفحتين كتب فيه سبنسر فصلاً او كتابًا كبيرًا

موت الاطفال في المدن الكبيرة

يموت من الاطفال في الشهر الاوّل من عمرهم اربعة امثال ما يموت منهم في الشهر الثاني ثم يقلّ الموت رويدًا رويدًا حتى لا يموت منهم في السنة الثانية والثالثة معًا الاّ مقدار ما يموت في الشهر الاوّل . ولكنّ هذا الموت ليس على حدٍّ سوى في المدن والضياع لانهُ يموت من الاطفال في المدن مضاعف ما يموت منهم في الضياع . وهذه القضيّة من الاهميّة بمكان عظيم ويجب ان يهتمّ بها الدول الكبيرة كما يهتمّ العيال الصغيرة . ونحن عند ما نقول الضياع لا نعني ضياع الفلاحين في ارياف مصر لان الذي علمناهُ من احوالها يدلنا على ان اكثر اهاليها يعيشون حتى الآن عيشة الفقر المدقع والجهل التام بقواعد الصحة والاهمال المطلق لشروط النظافة . وانما نعني الضياع التي انتشرت فيها مبادئ التهذيب مثل ضياع جبل لبنان وضياع اوربا واميركا فان هذه الضياع سريعة النمو وهي التي تنمي المدن المجاورة لها بمن ترسل اليها من السكان

ومرادنا الآن ان نتفحص الاسباب التي تعرّض الاطفال للموت الكثير في المدن الكبيرة فنقول اذا التفتنا الى ما بين المدن والضياع من الاختلاف الذي يمكن ان يؤثر في حياة الاطفال وجدنا ان اكثرهُ يندرج في اربعة امور

الامر الاوّل اختلاف احوال الوالدين في المدن عنها في الضياع . ففي المدن الناس على اربع طبقات طبقة الاغنياء والمتوسطين والفقراء والمتروكين . فالاغنياء قد اغناهم المال عن السعي والكدح فلازموا البيوت والحانات وضعفت اجسادهم من قلة الرياضة وصارت مباءة للامراض والاوصاب . او استولت عليهم عوائد الترف فاكثروا من التأنّق في المآكل والمشارب